لم يكن «ماني» حاضراً الاحتفال. فطَوال أعوام الحرب هذه كان يسير على دروبه الخاصّة بصحبة جيوشه هو يدفعه طموح إلى فَتْح من نوع آخر. ولسوف يفترض المؤرِّخون فيما بعد أنه اهتمّ في ذلك الوقت بأن يبني حَجَراً إلى حَجر «كنيسته». وكانت هذه الكلمة تضايقه. فقد كان يفضّل أن يقول «أملي»، «ذَوِيّ». وبحنانٍ «قافلتي»، أو يقول «أبناء «النور» وكان الأمر بالنسبة إلى من يراقبونه من الخارج أمرَ «كنيسة» حقّاً، برُعاة «مختارين» وقطيع مُريد؛ بيد أن السلطان فيها كان يخصّ فقط مَنْ يعيشون عيش المتسوِّلين، وكذلك من تُغْدِق أيديهم وفكرهم آيات الجمال. وإنها لتراتبية الحِرمان والإلهام بعيداً عن كل استحقاق آخر، تلكم هي «الكنيسة» التي أبدعتها قريحة «ماني»، وعلى هذا النحو كان ينبغي أن تدوم.

كان «أمل» ابن (بابل) يُزهر آنذاك على امتداد الطرقات، واتّضح أن عقيدته غازِيَة بلا نار ولا حديد ولا عِقاب. وعندما كان الأسرى من (نوريك) أو (موريتانيا) أو (بلاد الغال) يساقون إلى الأرض الساسانية كان تلامذة «الرسول» يأتون للقائهم وتحديثهم عن غثاثة الانتصارات الحربية، ومَنْح كل منهم نصيبه من التعزية والتشجيع في بلبلة الناس إزاء الربوبيات والألسن. واعتنق كثير من الحِرَفيين والنساء، وكثير من جند الفيالق المهزومة، الدينَ السَّمْح.

كثيرون من رعايا «شاهبور» أيضاً كانوا يتألّمون من الحرب، وقد فقدوا قريباً أو نغّص عيشَهم انقطاعُ طرق القوافل إلى أَجَل غير مسمّى. وكان لكلام «ماني» رَجْعٌ في نفوسهم هم أيضاً. وإنها لسنوات عجيبة كان فيها ملك الملوك مقاتلاً على الدوام في حين كان مَحْمِيُّه يمتدح السلام في أقاليم «الإمبراطورية» ولا يبشّر بأقل من «احتقار السيوف والأذرع التي تشهرها».

إنه لحديث يبعث على التمرّد ولا تحتمله آذان الفرسان والكهنة. ولكن ما العمل؟ «إن لكل مَلِك مجنونه»، هذا ما كان يتهكّم به «كردير» في خفاء معابد ناره، «وكلما عظُم المَلِك اتّسع مدى الجنون!» لأن «شاهبور» كان يرفض الاقتصاص من «ماني» على تهوُّره ما لم يكن الداعي إلى ذلك مأخذاً عامّاً. وإذا